محمد الماغوط

الشاعر المتمرد ، الصعلوك، الحزين

د . عبد العزيز المقالح

ما الشعر؟

الحديث عن الشاعر محمد الماغوط كشاعر مغاير ومختلف يقتضي بداية الوقوف على نماذج من التعريفات الخاصة بالشعر كفن قولي احتل مكاناً خاصاً في وجدان الإنسان وكانت له قواعده وعناصر تكوينه الفني ، ولم يكن التعريف التقليدي الذي أكل عليه الدهر وشرب "الشعر هو الكلام الموزون المقفى" إلاَّ البداية في سلسلة من التعريفات الافتراضية التي أملتها اعتبارات وتقديرات بعضها محافظ شديد المحافظة وبعضها الآخر يحاول أن يتحرر من تلك الاعتبارات ولكنه يظل في منأى عن حقيقة الشعر واكتناه مفهومه الغامض الملتبس ، سيما حين يكون شعراً حقيقياً يرتفع بالروح إلى أقاصي النشوة والدهشة .

وبما أنني وثيق الصلة بهذا الفن من القول –كما أزعم– فقد قرأت عشرات وربما مئات التعريفات التي تحاول سبر مفهوم الشعر وتعريف ماهيته ووجدتها عاجزة عن الاقتراب من ذلك المفهوم، فضلاً عن الدخول إليه أو التماهي معه. واعترف أني حاولت مثل الآخرين أن أرد على سؤال ما الشعر؟ لكن دون جدوى . وحين عثرت أخيراً على تعريف القديس

أوغسطين للزمن وقفت مبهوراً كأنني عثرت فيه على تعريف مماثل للشعر. فحين سئل هذا القديس عن الزمن "أطال النظر ثم أجاب : ما الزمن ؟ إني أعرفه جيداً ، أعرفه أكثر من سواي، شرط أن لا يسألني أحد عنه، ولكن إذا ما سئلت وأردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ والخوف. وربما يتعرق وجهي دون أن أجيب". وأنا كذلك؛ فلو سئلت عن الشعر لأطلت النظر وأجبت: ما الشعر ؟ إني أعرفه جيداً ، أعرفه أكثر من سواي، شرط أن لا يسألني أحد عنه ، ولكن إذا ما سئلت وأردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ والخوف، وربما يتعرق وجهي دون أن أجيب !!

تساقط التعريفات الشعرية أو تهافتها على هذا النحو، وعدم قدرتها على الإمساك بخيط واحد من خيوط كثيرة تحدد مفهوم الشعر، وعلى إلحاقه بالمطلقات، أمر في صالح الشعر وفي صالح الشعراء أيضاً؛ وأخص منهم أولئك الموهوبين المتمردين الذين يرفضون القواعد ويقاومون التماثل والتناظر في الفن، قولياً كان أو إيقاعياً أو تشكيلياً. وما الشاعر محمد الماغوط سوى واحد من هؤلاء الذين وجدوا أن باستطاعتهم الخروج على ما تواضع البعض على أن يعدوه الشكل الأمثل للكتابة الشعرية، وذهبوا إلى أن على الشاعر وهو يكتب قصيدته أن يكون أوسع حرية من جميع من يتعاملون مع الفنون الإبداعية؛ لأن أدوات تعبيره مقصورة على اللغة التي يتعامل معها كل الناس، باستثناء الصم والبكم .

ومن المدهش أن نلاحظ كيف يتحدث عن الشعر بوصفه موقفاً من العالم المعيش لا من الرؤيا أو التخييل؛ إنه وجدان فني يعتمد الواقعية المعطاة حسياً .. يقول في آخر حديث معه: "إن قصيدة النثر ألتقطت توترات الحياة بلحظاتها الإنسانية المستمرة، ألتقطت الأشياء الصغيرة وفتشت في مشاعرها

فكونت وجداناً فنياً .. كانت أكثر التصاقاً بالواقع ونفاذاً فيه؛ وبهذا شكلت موقفاً من العالم ".[١]

وفي شعر الماغوط دون الآخرين تتجلى هذه الخاصية وتأخذ مداها الفسيح محملة ببساطتها وتلقائيتها، حيث لم تستهوه القصيدة الغامضة وكان "كمتشرد أنزل اللغة من عليائها البالغ التجريد ، إلى مفردات الحياة اليومية وبشريتها السارحة على بركة الله ، تحت سقف أنظمة قاسية"-كما يقول الشاعر سيف الرحبي- الذي يضيف.. "بساطة تلك المفردات التي يوحي بأنها متداولة وعادية ، لا تفتأ أن تتغير طبيعتها في الدلالة والنبرة بدخولها إلى مناخ النص الماغوطي؛ لا تفتأ أن تبحر عاديتها إلى أفق آخر يسميه البعض التعقيد؛ أفق الشعر والعزلة واليأس وانكفاء التاريخ على نفسه، كقِدْر من اللبن المتخثر في مواقد البدو "[٢] لكن الماغوط بهذه المفردات التي تحررت من البلاغية والتجريد، وبقدر من مخاتلة المعنى ومراوغته، استطاع أن يصل إلى اقتناص مثل هذه الصور المتشبثة بمعانيها، وإلى أن يحفر طريقاً يكاد يكون خاصاً به، لا يسير عليه سواه :

يا عتبتي السمراء المشوهة
لقد ماتوا جميعاً؛ أهلي وأحبابي
ماتوا على مداخل القرى
وأصابعهم مفروشة
كالشوك في الريح
لكني سأعود ذات ليلة .
ومن غلاصمي
يفور دم النرجس .[٣]

بهذا الأداء الشعري المختلف عن السياق الجمالي الذي كـان سـائداً يومئذ بخطابيته وأساليبه البلاغية التي أكل عليها الـدهر وشـرب، اختـار الماغوط لغته بمفرداتها اليومية، وما تبرزه من تفاصيل داكنة عن الواقع .

ميلاد شاعر:

البداية:

كيف ظهر الماغوط إلى الوجود شاعراً ؟ تقول سنيه صالح في مقدمتـها المقتضبة لأثاره الشعرية الكاملة (دار العـودة ١٩٧٣م): "عنـدما قدمـه أدونيس في أحد اجتماعات مجلة "شعر" المكتظة بالوافدين، وقرأ لـه بعـض نتاجه الجديد الغريب بصوت رخيم دون أن يعلن عن اسمه ، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير... رامبو؟ ...). لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إلى شـاب مجهول ، غير أنيق ، أشعث الشعر، وقال: "هو الشاعر ..." لا شك أن تلك المفاجأة قد أدهشتهم، وأنقلب فضولهم إلى غمغمات خفيضة . أمـا هـو ، وكنت أرقبه بصمت ، فقد ارتبك واشتد لمعان عينيه"[٤] .

تلك هي البداية، وذلك هو أوان الميلاد؛ ميلاد شاعر مختلف، متمـرد، مشاكس، يشاكس اللغة والشعر والأصدقاء؛ يشاكس الماضـي والحاضـر والمستقبل، ويوهم كل من يعايشونه أو يقرأونه –إلاَّ نفسه– إنه يلعب ، ولا يريد أن يكون له مكان تحت شمـس الإبـداع أو حـتى اسـم؛ فتعليمـه وثقافته لا يؤهلانه لمثل ذلك المكان. لكن موهبته الكبيرة كانـت تفضـحه دائماً، وتقوده من موقع أدنى إلى آخر أعلى ، من الشعر إلى المسرح ، ومـن

الرواية إلى المقالة السياسية .ومن هذه المواقع جميعاً تكوَّن اسم محمد الماغوط، وصار له تحت شمس الإبداع مكان مرموق، يغبطه عليه أكثر الذين كانت لهم قبل أن يقدمه أدونيس إلى جمهور المجلة الصغير أسماء تدوي ويتـــرك دويهـــا دوائر في أكثر من مكان في دنيا الشعر العربي .

ومن حسن حظ ذلك الشاعر الذي بدأ مجهولاً ومرتبكـــاً أن محاولاتـــه الأولى انطلقت من بيروت وليس من أية مدينة عربية أخرى، ومن محيط مجلة شعر بالتحديد –مهما قيل عنها بعد ذلك– وليس من محيط مجلة أخرى؛ فقد كانت بيروت زمن تلك الانطلاق مركزاً ثقافياً يشـــع بالجديـــد في الفكـــر والأدب كما في السياسة . لم تكن قبضة الرقابة مطلقة الشأن، تتابع وتحاسب وتصدر فتاوى بما يجوز وما لا يجوز في الكتابة الإبداعية والفكرية على حـــد سواء، كما كانت مجلة شعر منبراً حراً بكل ما للكلمة من معنى؛ فهي تقبـــل من الشعر كل ما يمت إلى المستقبل بصلة ، بصرف النظر عن شهرة صاحب الشعر أو خموله، وعن انتمائه السياسي أو الاجتماعي؛ وذلك ما ينبغـــي أن يحسب لمجلة شعر حين توزن المواقف بميزان العدل والإنصاف . كما لا يجوز إغفال الدور الذي قام به أدونيس، ليس تعريفاً بالشـــاعر محمـــد المـــاغوط فحسب، وإنما في الأخذ بيده ورعايته في السنوات الأولى من تجربتـــه، إلى أن تمكن من الوقوف على قدميه شاعراً متمكناً من فنه ومن ثقته بقدراته . ولا ريب أن موهبته الكبيرة حمته من الوقوع تحت تأثير أدونيس أو غـــيره مـــن الشعراء المشهورين ، وأدونيس بخاصة، الذي ما من شاعر حديث إلاَّ وقـــد ترك فيه أثراً ما، أو في مكوناته الأولية على أقل تقدير .

وهنا يأتي الحديث لا عن موهبة الماغوط فحسب، وإنما عـــن تلقائيتـــه، تلك التي حمته من التأثر الشخصي المباشر بمبدع كان قريباً أو بعيداً منه زمانياً

ومكانياً. وإن تلقائيته أو عفويته –إذا شئنا– هي الــتي صــنعت شــعره ، وهندست للشكل الشعري الذي اختاره لكتابة نصوصه المفتوحة، الــتي لا تتشابك أو تتعالق مع شاعر آخر أو تحيل إليه . ومع أن تشابك النصوص أو تعالقها لدى المبدعين الكبار ليست عيباً ولا تشكل نقصاً في تجارب هــؤلاء، فإن طبيعة الماغوط وتلقائيته –كما سبقت الإشارة– همــا اللتــان جعلتــاه لا يتوقف أمام نصوص الآخرين أو يديم النظر فيها إلى درجة تؤثر في رؤيته، أو تترك أثراً منها على أسلوبه الخاص . ومهما قلنا عن المــاغوط فــنحن لا نستطيع أن نسبر غور تجربته الشعرية على بساطتها وتلقائيتها ، وفي الوقــت ذاته لا نستطيع أن ننكر ما كان له من بالغ الأثر على أجيال من الشعراء من ناحية، وعلى تغيير مفهومنا للشعر من ناحية ثانية .

ثقافة الماغوط :

محمد الماغوط شاعر ماكر؛ وهو واحد من المبــدعين القلائــل الــذين يجيدون المكر الجميل وينشرون حول أنفسهم من الإشاعات ما يتناقض مــع حقيقتهم؛ فالصورة التي صنعها الماغوط لنفسه تمثل الفوضــى واللامبــالاة؛ صورة من لا يقرأ ولا يهتم بالثقافة بمعناها الواسع، في حين أنه على العكس من ذلك تماماً؛ فهو شاعر منظم شديد التركيز، يتابع ما يحدث حولــه ومــا يحدث في العالم. وهو قارئ يهتم بالشعر والرواية؛ يتضح ذلك من كتاباتــه النــثرية بخاصة، حيث تتجلى فيها خلاصة قراءاته وتجاربه. وما لم يكشــفه شعره تكشفه كتاباته النثرية، ومسرحياته التي يفضح فيها بــذكاء منقطــع النظير واقع الوطن العربي وكأنه يجوس خلاله دارساً محللاً، يلتقط السلبيات الكثيرة ، ولا يغفل عن الإيجابيات القليلة، ولا تكاد تفوته شاردة أو واردة

من مسببات التخلف ومعوقات التقدم. وهذه الكتابات النثرية تفضح دعوى فوضويته ولا مبالاته وجهله بمقومات الثقافة العربية والعالمية المعاصرة .

والسؤال هو: ما الذي كان يهدف إليه الماغوط من وراء إشاعة تلك الصورة عن نفسه؟ فهل حاول أن يخفي تمرده بادعاء الفوضوية، وأن يخفي التزامه بادعاء اللامبالاة، وإخفاء وعيه العميق بالواقع بادعاء عدم الاهتمام بما يجري ؟

من الصعب العثور على إجابة واحدة حاسمة أو عدة إجابات ، إلا أن الجواب الممكن يأتي من خلال إطالة الوقوف أمام إبداعه الشعري والنثري، بما حفلا به من توق جامح للتمرد، وتعزيز الاختلاف، والإصرار على نزع الأقنعة عن كثير من الوجوه التي تقتحم علينا حياتنا وكأنها وجوه ملائكة وهي في واقع الحال وجوه شياطين بل أسوأ .

أين كنت يوم الحادثة ؟
كنت ألاحق امرأة في الطريق يا سيدي
طويلة سمراء وذات عجيزة مدملجة
إنني الوحيد الذي يمر في الشارع دون أن يحييه أحد
دعني لا أعرف شيئاً
أطلق سراحي يا سيدي! أبي مات منذ يومين
ذاكرتي ضعيفة ، وأعصابي كالمسامير.(٥)

بعد رحيله كتبت للصحافة الأدبية عدداً من الخواطر تعرضت في بعضها لثقافة الماغوط؛ ومما جاء في واحدة منها : "كنت ولا أزال أتوقع أن يثير

غياب هذا المبدع الكبير أسئلة جوهرية ذات أبعاد أعمق تتعلق بالشعر كظاهرة تعبيرية رافقت الإنسان منذ بدأت علاقته الواعية بالأشياء من حوله، ومنذ بدأت اللغة الأولى تحقق بعض نجاحاتها في الاقتراب من هذه الأشياء بقصد امتلاكها أولاً ، وبقصد إدراك ما هيتها وما تنطوي عليه من أسرار ثانياً . وكان من شأن اكتشاف هذا الفن الجميل أن يفتح الباب واسعاً أمام اللغة لتكون أداة طيعة للفكر الذي دخل مع العقل والأشياء في حوار لن ينتهي . وقلت –أو بالأصح كتبت– أن في مقدمة الأسئلة التي أتوقع أن تثار في غياب محمد الماغوط سؤال عن ثقافة الشاعر بعامة، وثقافة الشاعر الماغوط بخاصة ، وكيف استطاع مبدع مثله كان باعترافه واعتراف كل الذين تابعوا تجربته يعيش على هامش الثقافة؛ لم يحرز نصيباً من التعليم الجامعي، ولم يكن حريصاً على إتقان أي لغة من اللغات الأجنبية، ومع ذلك فقد تمكن من أن يؤسس بالمصادفة ودون تخطيط لظاهرة فريدة في الشعر العربي الحديث هي ظاهرة "قصيدة النثر"، أو –بوصف آخر– الشعر الأجد . وبالمناسبة فقد كان لقائي الأول به في مكتبي في جامعة صنعاء منذ سنوات مدعاة من جانبه إلى الحديث عن التعليم . وقال لي حرفياً وهو يكتم ضحكة مجلجلة: أنا غير متعلم، لم أدخل جامعة. علاقتي بالمدارس كانت محدودة للغاية؛ وقد دخلت إلى الشعر من باب قراءة الحياة والناس والطبيعة؛ هذا الكتاب المفتوح للجميع".(٦)

أكبرت فيه – يومئذ– ومازلت أكبر فيه تواضعه وثقته بنفسه، وإحساسه بأن الشعر لا يأتي من الكتب وإن كان على الشاعر أن يكون على إطلاع واسع بثقافة عصره وثقافة العصور القديمة، ليس في لغته وحسب، وإنما في اللغات الأخرى، التي صار إبداعها ميسراً بعد أن فتحت الترجمة

الطريق إلى المعرفة بكل أبعادها؛ فهذه الثقافة نافعة للشاعر شرط ألاَّ يحاكيها أو يحولها إلى مقولات وحكم، وإنما لتذوب ظلالها في روح نصه وتتماهى فيه.

الشاعر المتصعلك :

لم يكن محمد الماغوط صعلوكاً بالمفهوم القديم للصعلكة، لكن أحـــداً لا يستطيع أن ينكر أنه كان في حياته الأولى على الأقـــل يجســـد أخلاقيـــات الصعاليك، ويستحضر مبادئهم القائمة على التحرر المطلق من هيمنة القبيلة، سواء في تفلته من الالتزام السياسي المؤطر، أو في خروجه على السائد، أو في ثقافته الصعلوكية، تلك التي جعلت من الحياة ومن الطبيعة مدرســـته الأولى التي تمتد أمامه بفضاءاتها الواسعة ، والتي يلتقي بها في صحواته ومســـاءاته، يتحدث إليها، وتتحدث إليه، في تناغم حميم :

أيتها الجسور المحطمة في قلبي
أيتها الوحول الصافية كعيون الأطفال
كنا ثلاثة
نخترق المدينة كالسرطان
نجلس بين الحقول ونسعل أمام البواخر
لا وطن لنا ولا أجراس
لا مزارع ولا سياط.(٧)

وللصعلكة في القاموس معانٍ كثيرة، أقربها إلى صعلكة الماغوط ذلـــك المعنى الذي يذهب إلى القول بان التصعلك هو التجرد من الغنى، والإيمـــان بالعدالة والمساواة؛ وهو ما تمثله حياة الماغوط منذ البداية حتى النهاية. هـــذا

فضلاً عن صفات أخرى اكتسبها من الصعلكة، ألا وهي التشرد في بداية حياته عندما لم يكن له بيت يأوي إليه . أما الجرأة والشجاعة والتمرد –وهي من أبرز صفات الصعلكة الإيجابية– فقد كانت جزءاً لا يتجزأ من سلوكه . ويمكن القول إنه متصعلك عصري، يقبل على الحياة كما كان صعاليك الزمن الغابر يقبلون عليها ولا يحتفظون منها بشيء. ينفقون ما في الجيب حتى وإن لم يكن يأتيهم شيء مما في الغيب . كانوا فرسان ترحال وعشق لاكتناه المجهول . وكان عشقهم للحرية هماً رئيساً في التزام الصعلكة . وربما لن نفهم الماغوط إذا لم نتفهم ذلك القدر من الصعلكة التي اتسمت بها حياته، التي لم تكن مجهولة، والتي كان يرى فيها بعضهم شيئاً من الوجودية ، وهي لم تكن كذلك، إلاَّ إذا كان في الوجودية قبس من الصعلكة بمفهومها العربي كما جسَّده صعاليك ما قبل الإسلام ، وفي طليعتهم "الشنفري"، ذلك الذي لا يجارى في صعلكته المثيرة للإعجاب والهلع والشجن؛ صديق الليل والحيوانات، وشريكها في الجوع الدائم والشبع النادر. التمرد علامة الصعلكة؛ والماغوط شاعر متمرد ، وتمرده هو الذي جعله يختار طريقه المنفرد، ويشتق لغته البسيطة السهلة غير المتعالية ، التي استطاع بها أن يخلق نمطاً من التعبير الشعري غير المسبوق، ويكتب قصائد تتطابق في بعض وجوهها مع قصائد بعض صعاليك الزمن القديم وإن اختلفت شكلاً وموضوعاً عن قصائدهم :

على هذه الأرصفة الحنونة كأمي
أضع يدي وأقسم بليالي الشتاء الطويلة:
سأنتزع علم بلادي عن ساريته
وأخيط له أكماماً وأزراراً

وارتديه كالقميص
إذا لم أعرف
في أي خريف تسقط أسمالي
وأني مع أول عاصفة تهب على الوطن.[٨]

هذه اللمحة الصعلوكية المتمردة أليست ترجمة معاصرة لرؤيا الصعاليك القدماء الخارجين على كل الأعراف والتقاليد الثابتة في عصرهم، وفي مقدمتها تقاليد الولاء لعلم القبيلة والوطن ؟ وألا يتسع فضاؤها الدلالي لإيحاءات التمرد والخروج، مع مفارقة مغايرة تتخطى عالم الأشياء التي كان الشعراء الصعاليك القدامى يمسكون بها، ويستمدون من أصولها مرجعيتهم اللغوية والرؤيوية؟ والماغوط بالإضافة إلى ذلك شاعر لا يخجل من فقره ولا من الحديث عن هذا الفقر بقدر من الحميمة، وكأنه أحد العشاق المتيمين بالفقر والحرمان، شأن "الشنفري"، ذلك الذي لم يكن يكف عن وصف علاقته بالجوع، ويداوم الحديث عنه . يقول الماغوط :

يا أهلي .. يا شعبي
يا من أطلقتموني كالرصاصة خارج العالم
الجوع ينبض في أحشائي كالجنين
إنني أقرض خدودي من الداخل
ما أكتبه في الصباح
أشمئز منه في المساء
من أصافحه في التاسعة

أشتهي قتله في العاشرة
أريد زهرة كبيرة بحجم الوجه
ثقباً كبيراً بين الكتفين
لتنبثق ذكرياتي كلها كالينبوع
أصابعي ضجرة من بعضها
وحاجباي خصمان متقابلان. (٩)

وما الشعراء المتمردون غير المنضوين في منظمات أو أحزاب إلاَّ صعاليك ثوار ينتظرون الثورة التي تأخرت كثيراً :

منذ كانت رائحة الخبز
شهية كالورد
كرائحة الأوطان على ثياب المسافرين
وأنا أسرِّح شعري كل صباح
وأرتدي ثيابي
وأهرع كالعاشق في موعده الأول
لانتظارها
لانتظار الثورة التي يبست
قدماي بانتظارها. (١٠)

ولهذه المواقف المتصعلكة لم يكن عند الماغوط ميل للحصول على الاعتراف به شاعراً بدأ ذلك الشعور معه منذ البداية، واستمر معه إلى آخر حياته؛ وهي سمة الصعلوك المتمرد . وهل كان صعاليك الجاهلية يفكرون في

من يعترف بهم شعرياً، أو كان يعنيهم الحضور في أسواق الشعر التي كانت تقام في عصرهم بحثاً عن هذا الذي لم يخطر ببالهم الحصول عليه وهو الاعتراف .

وقد يكون هذا أحد الأسباب المهمة في أن الماغوط توقف عن كتابة الشعر عند زمن معين، واتجه إلى كتابة النثر الذي لم يكن يخلو من تعابير شعرية. وأتذكر هنا أنه في حديث له مع عدد من طلاب الدراسات العليا في جامعة صنعاء قال كلمة لا ينبغي أن نمر عليها أو نتناساها وهي:"إن الشعر كان بالنسبة لي عابر سبيل" -وهي عبارة تصلح لتكون عنواناً لبحث موسع، يعيد النظر في تجربته الشعرية كاملة، وفي علاقته المثيرة مع الشعر؛ فهو لم يستعد له، ولم يتفرغ له كما فعل آخرون كثيرون، قديماً وحديثاً ، والأهم أنه لم يحافظ على استمرارية التواصل معه. وباستثناء مجموعاته الشعرية الثلاث(حزن في ضوء القمر) و(غرفة بملايين الجدران) و(الفرح ليس مهنتي) التي حققت له شهرة عالية وشكلت -حد تعبير شاعر عميق متمكن هو محمد علي شمس الدين- الفتوه الإبداعية التغييرية [١١]، باستثناء تلك المجموعات الثلاث فإن أعماله اللاحقة (سياف الزهور) و(شرق عدن غرب الله) و(البدوي الأحمر) لا ترتقي بشعره إلى مستواه الأول، وتكاد تؤكد على أنه بمجموعته (الفرح ليس مهنتي) كان قد أنهى صلته بالشعر وبقصيدة النثر كما أتت إليه دون افتعال أو انتظار . ولم يكن تفكك (جماعة شعر) التي برز في إطارها، ولا ظهور أصوات شابه جديدة تكتب قصيدة النثر بمفهوم مخالف وراء ذلك التوقف أو الاستمرار غير الناجح .

الشاعر الحزين:

لم يكن محمد الماغوط عندما بدأ الكتابة الشعرية يبحث عن شكل جديد للقصيدة العربية بقدر ما كان يبحث لها عن مهمة إضافية تمكنها من الانفتاح على العصر، وفي الوقت ذاته من الانفتاح على الناس ومناقشة أوضاعهم همومهم وأحزانهم . ولم يكن يهتم بالجماليات الفنية للشعر قدر اهتمامه بما يعانيه البشر من مشكلات سياسية واجتماعية، بدت في النصف الثاني من القرن العشرين بالغة القسوة، مفرطة الإيلام .

لقد كان الماغوط واحداً من الشعراء العرب الحزانى، أو على حد وصف الشاعر صلاح عبد الصبور: المتألمين . وقد يظن البعض من الذين كانوا يرون إلى حياة الماغوط من الخارج أنه شاعر مرح، بل أبعد ما يكون عن الحزن، وأنه عاش حياته طولاً وعرضاً. لكن المتأمل إلى تلك الحياة وإلى شعره – وهو التعبير الحقيقي عن أحاسيسه وخلجات روحه- سوف يكتشف أنه شاعر حزين بكل ما للكلمة من دلالة ومعنى . وهو قد ينجح أحياناً في أن يغطي حزنه بغلالة شفافة من التمرد والسخرية، إلاَّ أن هذه الغلالة لا تمنع من أن يرى القارئ قلب الشاعر وهو يعترف؛ إذ كان سكوناً بحزن دفين. يتبين ذلك من خلال حديث غير مباشر له. لا عن نفسه وإنما عن قريته "سلمية" التي كان يراها بعين حزنه هو دمعة دائمة الانسكاب:

سلمية: الدمعة التي ذرفها الرومان
على أول أسير فك قيوده بأسنانه .
ومات حنيناً إليها
سلمية .. الطفلة التي تعثرت أوروبا

وهي تلهو بأقراطها الفاطمية
وشعرها الذهبي
وظلت جاثية وباكية من ذلك الحين
دميتها في البحر
وأصابعها في الصحراء
....
....
كلما هب النسيم في الليل
ارتجفت ستائرها كالعيون المطروفة
كلما مر قطار في الليل
اهتزت بيوهّا الحزينة المطفأة
كسلسلة من الحقائب المعلقة في الريح
والنجوم أصابع مفتوحة لالتقاطها
مفتوحة – منذ الأبد– لالتقاطها.(١٢)

إنه شاعر حزين ، وحزنه قديم قدم قريته سلمية، تلك التي لا تكف عن البكاء عبر العصور، والتي لابد أن تكون قد نقلت شيئاً من أحزانها إلى أبنائها وطبعتهم به منذ نعومة أظفارهم ، لحزن الماغوط –إذن– جذور تاريخية ضاربة في القدم ، وهو حزن في نسيج الواقع، يعكس هموم مرحلة هي الأصعب والأقسى في تاريخ العرب المعاصرين؛ تاريخ المحاولات الثورية والوحدوية الفاشلة؛ تاريخ مقاومة العدو الفاشلة أيضاً . إنه حزن واقعي حقيقي لا مفر منه ولا ملاذ:

دموعي زرقاء
من كثرة ما نظرت إلى السماء وبكيت
دموعي صفراء
من طول ما حلمت بالسنابل الذهبية
وبكيت
فليذهب القادة إلى الحروب
والعشاق إلى الغابات
والعلماء إلى المختبرات
أما أنا
فسأبحث عن مسبحة كرسي عتيق ...
لأعود كما كنت
حاجباً على باب الحزن. (١٣)

في هذا النص الذي أوردته كاملاً تتبين العلاقة الوثيقة والقديمة بين الماغوط والحزن ، وكون هذا الأخير طبعاً فيه لا تطبعاً، أو بالأحرى حزناً لا تحزناً. ولهذا فإن علينا أن نعيره من الاهتمام ما يستحقه لتبدو صورة الشاعر كما هي لا كما نتناقلها أو نخلع عليها من تصوراتنا . ومن خلال هذا الاهتمام سندرك أن نصوصه الشعرية في مجموعاته الثلاث (حزن في ضوء القمر) و (غرفة بملايين الجدران) و (الفرح ليس مهنتي) قد توزعت على ثيمات واسعة ومتعددة، إلاَّ أن ثيمة الحزن كانت الفائزة بنصيب الأسد .

ويكفي أن الحزن يتصدر عنوان المجموعة الأولى، وغيابه يتصدر عنوان المجموعة الثالثة . وفي أول نص في المجموعة الأولى يتحدث الشاعر هكذا:

وتحت الظهيرة الصفراء
كنت أسند رأسي على ضلفات النوافذ
وأترك الدفعة
تبرق كالصباح ،كامرأة عارية
فأنا على علاقة قديمة بالحزن والعبودية
وقرب الغيوم الصامتة البعيدة
كانت تلوح لي مئات الصدور العارية القذرة
تندفع في نهر من الشوك
وسحابة من العيون الزرق الحزينة. (١٤)

وفي لحظة حزن جارح، تؤازره رغبة داخلية في التخلي عن الحياة، يستدعي الماغوط زميلة بدر شاكر السياب، الذي كان قد رحل في أواسط الستينيات ليتحدث إليه عن معالم التشابه في حياهما، ويبشره بأنه قد يحل ضيفاً عليه في أية لحظة. وهذا ما يشير إلى ضيقه العميق بالحياة وبرمه مما يترتب عليها من أحزان :

يا زميل الحرمان والتسكع
حزني طويل كشجر الحور
لأنني لست ممدداً إلى جوارك

ولكني قد أحل ضيفا عليك
في أية لحظة
موشحاً بكفني الأبيض كالنساء المغربيات. (١٥)

وإذا كنا نستطيع حصر مفردة الحزن في الديوان فإننا سوف نعجز عن حصر المواقف الحزينة الخالية من تلك المفردة، التي تفيض كذلك مرارة وكآبة سوداء . ومن المفارقات المثيرة وصف الحب بالحزن على هذا النحو (الحب خطوات حزينة في القلب) كما جاء في مطلع نص بعنوان (سرير تحت المطر) وفيه وصف آخر للحبيبة بالصورة الحزينة :

كن غاضباً أو سعيداً يا حبيبي
كن شهيداً فاترا ، فإنني أهواك
يا صنوبرة حزينة في دمي
من خلال عينيك السعيدتين
أرى قريتي وخطواتي الكئيبة بين الحقول
أرى سريري الفارغ
وشعري الأشقر مهدلاً على المنضدة
كن شغوفاً بي أيها الملاك الوردي الصغير
سأرحل بعد قليل ، وحيداً ضائعاً .
وخطواتي الكئيبة
تلتفت نحو السماء وتبكي. (١٦)

وفي فضاء السفر، وهو يأخذ في شعر الماغوط أشكالاً مثيرة للتساؤل، يجد الحزن طريقه المتعدد، ومداراته القاتمة، سيما حين يتحول الشعر إلى رثاء للمخلوقات الآدمية وللأرصفة والطرقات والمــوانئ والأشــجار والعيــون المهمشة والأصابع الجرباء، وحين يحدثنا الشاعر عن أشيائه التي سيضطر إلى توديعها، لأنه لن يتمكن من حملها :

بلا أمل..
وبقلبي الذي يخفق كوردة حمراء صغيرة
سأودع أشيائي الحزينة ليلة ما ..
بقع الحبر
وآثار الخمرة الباردة على الشمع اللزج
وصمت الشهور الطويلة
والناموس الذي يمص دمي
هي أشيائي الحزينة. (١٧)

تأملات فنية

لنتجاوز كل ما قيل عن شعرية المألوف اليومي ، على الــرغم مــن أن غالبية قصائد الماغوط –إن لم تكن كلها– تنتمي إلى هذا النوع من الشــعر الذي يلتقط بعدسة القلب الجزئيات وأحياناً الكليات من الحياة اليومية كما يعيشها الشاعر ويعيشها معه الآخرون. أقول لنتجاوز كل ما قيل عن هــذا النوع من الشعر، لأننا لن نأتي فيه بجديد، ولنقترب قليلاً من لغة الشاعر ومن طريقته في تركيب الجملة الشعرية. ولعل أول ما يلحظه القارئ أن قصــائد

الماغوط تنطلق من صيغة المفرد المتكلم، لكن استخدام الشاعر لهذه الصيغة بقدر ما يشير إلى الشعور بالذاتي والوجداني فإن الموضوعات التي يتناولها في قصائده توحي للقارئ بأن هذه الذات الحزينة المعذبة المتمردة ليست ذاته الشخصية فحسب، وإنما تحمل في ثناياها كل الذوات المسحوقة المتألمة التي تتماهى معها . واستخدام الأنا في شعره بهذا الإكثار لا يقود إلى المباشرة الفجة،كما يحدث عنه الآخرين ممن يلجأون إلى الحديث بصيغة الأنا فيقعون في حالة من إغراق في الشكوى والاسترسال في الثرثرة الذاتية .

ويلاحظ أن الماغوط يكتب لغة مختلفة تماماً عن تلك التي كتب بها مجايلوه من شعراء قصيدة النثر ، إنها لغة ناصعة تنهض من إرثها العربي –حد تعبير لا أتذكر مكانه الآن – للناقد (كمال أبو ديب) في سياق يقارن فيه بين لغة الماغوط وأدونيس وأنسي الحاج. ولهذا التمكن من اللغة دلالته العميقة على أن الشاعر كان قادراً بفطرته على أن يجسد مشاعره في صياغة لغوية متماسكة وفق نظامها النحوي والمنطقي، وهو ما أعطى لشعره خصائص بنائية لا تتصادم مع تجربة الموروث الشعري والثقافي رغم تصادمها الحاد مع الأشكال الشعرية الموروثة. كما أن موقفه يبدو واضحاً من رفض اللعبة اللغوية في اقتصاره على ما يحمله تركيب الجملة الشعرية الجديدة من إيحاء بالدهشة والتأكيد على وضوح المعنى وبراءته من الغموض الفارغ من أية دلالة فنية أو رمزية. وهو ما يجعل أسلوبه مغايراً لأساليب المدرسة الشعرية التي خرج منها وكان –كما يقول رواد هذه المدرسة أنفسهم– واحداً من تلاميذها المخلصين.

وتبقى في هذا الصدد إشارة عابرة إلى توظيف الماغوط للسرد في القصيدة، فثمة فرق شاسع بين وظيفة السرد في القصة والرواية ووظيفته في

الشعر، فهو هناك عنصر أساسي لا تستقيم الكتابة القصصية من حيث هـــي بنية سردية إلاَّ به، في حين لا يقوم السرد في الشعر إلاَّ بدور محدود يتخلـــل مستوى التعبير كعنصر جمالي يستعين به الشاعر على الدخول بالقارئ إلى ما يشبه كينونة عالم الحكاية ومناخاته، وهو ما يشي بـــه الـــنص المـــاغوطي في توهجه ونزقه واندفاعه وحرصه على إيراد بعض التفصيلات التي لا تخلو من الدهشة والغرابة.

هوامش:

(١) مجلة العربي: العدد (٥٧١) يونيو ٢٠٠٦م .

(٢) مجلة نزوى: العدد (٣١) ص١٢٣ يوليو، ٢٠٠٢م.

(٣) الآثار الكاملة: دار العودة، ص١٩٢، الطبعة الثانية ١٩٨١م .

(٤) المصدر نفسه: ص٩ .

(٥) نفسه : ص٩٦ .

(٦) مجلة الكويت: العدد (٢٧١) ص١٣ مايو ٢٠٠٦م .

(٧) الآثار الكاملة: ص٥٩ .

(٨) المصدر نفسه: ص٢٤٣ .

(٩) نفسه: ص١١١.

(١٠) نفسه: ص٢٧٥.

(١١) مجلة العربي: العدد(٥٧٣)، ص٥٦ أغسطس ٢٠٠٦م .

(١٢) الآثار الكاملة: ص٢٣٨.

(١٣) المصدر نفسه: ص١٤١ .

(١٤) نفسه: ص١٨ .

(١٥) نفسه: ص٢٩٧.

(١٦) نفسه: ص٧٩ .

(١٧) نفسه: ص٣٢ .